قصة درع بشرية

• جانيت وينترسون*

ترجمة: هناء سليمان

«هووووه، هووووه. نم يا حبيبي نم.

أنت تصرخ من الشظايا الآن، وغدًا ستصير مسخًا مشوهًا،

لكنك يا حبيبي ستعرف يومًا أنّ إعاقتك نعمة، وستشعر أنك ممتنّ

لقنابل الأطفال التي أرسلها فاعلُ الخير جيفري هون.»

(من قصيدة لتوني هاريسون، ردًا على وزير الدفاع البريطانيّ جيفري هون الذي قال في حديث للراديو إنّ الأمهات العراقيات سيشكرنه على استخدام القنابل العنقودية)

نادني بالحرفين: ت. د. للاسم وقعٌ يشبه سيارةً قديمةَ الطراز أو عميلاً سريًا. أنا في الزمان الخطإ بالتأكيد، وربما في المكان الخطإ أيضًا، وأشعر أنّني أقربُ إلى قصةٍ منّي إلى كائن بشريّ. أنا من ذلك النوع من الأشياء التي يُكتب عنها. أنا مكتوبة بالحروف، وخلف الحروف حياة، وهي الشيء الوحيد الذي لم أستعره لهذه الرحلة.

حينما وافقتُ على المجيء إلى بغداد لم تكن لديّ الملابسُ ولا الاتصالاتُ أو الخبرةُ أو النظرية، لا المصادرُ ولا حتى النقود. كان لديّ شيء واحد أستطيع أن أمنحه بحرية: حياتي. أما بقية الأشياء، فمهما دفعتَ لتحصلَ عليها، فسيمتلكها، عاجلاً أو آجلاً، شخصٌ آخر.

الشمس تُشْرق، وفي كلّ صباح أتساءل إنْ كنتُ سأراها مرةً أخرى. أنا لا أملك شروقَ الشمس ولا أستطيع أن أجعلها تُشْرق، ولكنّني أَشْعر به هبةً، هبةَ الضوءِ والدفءِ والأملِ ويومٍ آخر. في الوطن لم أكن أرى الشروقَ إلاّ نادرًا، وكان الصباح مجردَ فوضى من أصوات المنبّه والكورن فليكس والنكد، وأمنية أن يطول النومُ قليلاً ـ لو لم يكن اليومُ قد بدأ بعد.

هنا أستيقظ قبل شروق الشمس. الآن أحادث الشمس، أطلب مزيدًا من الوقت. وأرسم الظلال بغيرة المحبّ. كوبُ الماء هذا، وفنجانُ القهوة المحلاّة، والخبزُ المخبوزُ بالأمس، كعكةُ العسل هذه، كلُّها أشياء لم أتذوَّقْها قبل الآن: ولكنّني أتناولها كلَّ يوم الآن، وفي كلّ يوم أشعر بأنّها جديدة مثل الشمس بالنسبة إليّ، ومثل الحياة التي أشعر بها جديدةً كلّ يوم.

ليست لديّ ممتلكاتٌ هنا، ولكنّني أغنى من بئر بترول. حينما قلتُ إنّني سأَمْنح حياتي، صرتُ أقدِّرها، وأصبح تقديرُها فعلاً، جزءًا فاعلاً من الكلام. لا أفتقد شيئًا الآن: أتسلّق جبالَ ثروتي كشيء خرافيّ لامعٍ قادمٍ من أسطورة. أنا كلُّ ذهب الشرق وجواهره. أنا بساطي السحريّ.

وأنتَ، متى كانت آخر مرة أحببتَ فيها الحياةَ؟

لم أجد صعوبةً في اتخاذ القرار. أنا من الكويكرز.[1] كان أبي سائقَ سيارة إسعاف في الحرب العالمية الثانية؛ وبينما كان الرجال الآخرون يحاربون وصورُ الحبيبات في الجيوب، كان أبي يَحمل صورةً لكرسيّ من طراز الملكة آن. كان يودّ أن يتذكّر ما كان يضحّي بحياته من أجله، وكان ذلك استمرارًا للحضارة، الإمكانَ الهشَّ لعالمٍ متحضّر.

كلُّ ما أعرفه هو أنّ الحروب تؤدّي إلى مزيد من الحروب فيما بعد. العنف يعود في صورة عنف، والحربُ يمكن تبريرُها دائمًا وجعلُها ضروريةً: هذه الحرب هي «الأخيرة،» «آخر الحروب،» وبعدها «لن تكون هناك حروب.»

ليس لدينا اختيار، أما أنا فقد أردتُ أن يكون لديّ اختيار. أنا لا أستطيع أن أؤثّر في العالم. لا أقود دولاً إلى مصائرها. وما الاختيار المتاح لي حينما تذهب بلادي إلى الحرب؟ لقد قررتُ أن أصوِّت بجسدي، فذهبتُ إلى العراق درعًا بشريةً.

---

* ـ كاتبة من لندن. والمترجمة كاتبة مصرية.

١ ـ الكويكرز: طائفة مسيحية أسسها جورج فوكس عام ١٦٥٠. محورُ العقيدة فيها هو الإيمانُ بالضوء الداخليّ. ويَرْفض أفرادُ الطائفة الطقوسَ والكنيسةَ التقليدية. وقد دعمت الطائفةُ العديدَ من قضايا الإصلاح الاجتماعي، وأسهم أفرادُها في مقاومة حرب فيتنام. (المترجمة)

كنتُ خارجةً على الشرعية فور وصولي. تحوّلتُ إلى مجرمة حرب. لم أقتل أحدًا ولم أشترك في قتل الآلاف، لكنّني أصبحتُ «ضدّ الوطنية،» «خطرًا» على نفسي وعلى الآخرين. كنت شخصًا «يستحقّ» العقاب. لو تمكّنتُ من البقاء حيةً، فسأُعتقل وأُحاكم وأُدان ويُلقى بي في السجن. عالم غريب حقًا، حيث يُعدّ من الشجاعة أن تموت وأنت تُقتلُ الآخرين، ومن الجريمة أن تَهبَ حياتَكَ لتفتدي الآخرين.

دعوني أقلْ لكم. أنا لست مادةً للشهادة. جان دارك والحرق على العمود والقلب المحترق لا تَصلُح لي. لم أؤمن أبدًا بشيء إلى حدِّ أن أموتَ من أجله، ربما لأنّني لم أؤمنْ بشيء أعيش من أجله. مثلَ كلِّ الناس سلكتُ طريقًا، راضيةً بمسوَّدةٍ خريطة، دون إرشاداتٍ واضحة ودون تحدياتٍ كثيرة.

كيف تغيَّرتُ؟ لقد تغيَّر مسارُ الطائرات. كنتُ أَسْكن في ضواحي لندن بالقرب من مطار جويّ يُستخدم عادةً لطائرات النقل. ولكنْ بسبب الحرب تحوَّلَ المطارُ إلى مقرّ لقاذفات القنابل الأميركية ب ـ ٥٢. كانت تطير فوق سطح منزلي مباشرةً، تهزّ الأعمدةَ وتهزّني فأستيقظ من نومي، من نومٍ كان يبدو لي أنَّه طال سنوات. وتحت ثلاثين طنًا من القنابل وقاذفاتِ الصواريخ التي تحشو بَطْنَ الطائرة كمسخٍ وليدٍ، استيقظ عقلي النائمُ على احتمال الفقد. ماذا لو كان منزلي، أبنائي، شارعي المألوف، هي التي تنتظر كلَّ ليلة هديرَ الطائرات الخفيض، مدركةً أنَّها لن تَعْبر لتهبط ببراءة في مكان آخر، بل ستلد الموتَ الحيَّ فوقي؟ ماذا لو كنتُ أنا المكانَ الدافئَ الذي اختارتْه؟ هذا السرير، حيث يجب أن يكون كلُّ شيء آمنًا، سيصبح فزعي الليليَّ. لن تحميَني أيةُ أغطية فوق رأسي. لن يأتي عبر الباب مَنْ يُمْسك يدي مطمئنًا ليوقظني من الحلم الشرير.

لقد غيّرتُ مسارَ طيراني. ذهبتُ إلى ركن الطيّار وأَبطلتُ عملَ الطيّار الآليّ الذي كان يحدِّد مسارَ حياتي، وأمسكتُ بزمام الأمور. هبطت الطائرة على الفور؛ لم أقد طائرةً من قبل.

هل كانت السموات بهذا الاتّساع حقًا؟ هل كان المشهد واضحًا إلى هذا الحدّ فوق مستوى السحاب؟ كنتُ متَّشحةً بالزرقة كالسيدة العذراء، زرقاءَ كالكوكب الذي يدور بين الأنجم دون أن يخشى السقوط.

لقد تماهيتُ مع حريتي. لكنّ هذه البهجة لم تَدُمْ طويلاً؛ فقد شعرتُ على الفور بأنّني حمقاء، حمقاء لا يريدها أحد. ماذا كنتُ أفعل هنا، متَّخذةً من يأس أناس آخرين قضيتي؟

بينما كنتُ أسير وسط شوارع بغداد، أقابل أصحابَ الدكاكين والأطفال، بدأتُ في تعلُّم ماذا يعني أن تعيش بلا أمل. أن يُقتل الديكتاتورُ أو يبقى، هل ستتغيَّر الأشياء بعد ذلك حقًا؟ قلةٌ كانت تعتقد ذلك. قلةٌ كانت تؤْمن بالتحرير كنتيجة للتغيير. لقد بنى الناسُ حياتَهم على ما لديهم بالفعل، وكانت تلك هي الحياةَ التي كانوا يريدون أن يحافظوا عليها. كان هناك الكثيرُ من الغضب، والكثيرُ من الاستعداد للقتال، دون تفاؤلٍ بأنّ عالمهم سيصبح مكانًا مختلفًا. المكان المختلف ليس لهم؛ إنَّه للأغنياء والأقوياء. ولم يكن أحد منهم كذلك.

وهكذا رحتُ أطهو وأنظِّف وأقشِّر الخضروات وأنتظر.

كان هناك جنديّ يمرّ بحجرتي المستأجَرة كلَّ يوم في سيارةِ نقل. كان من المميَّزين لا الخائفين، من الصفوة لا العامة. لم يتحدَّث إليّ قطّ. فقط كان ينظر إليّ وأنا جالسةٌ القرفصاءَ أحضِّر الطعام. حتى جاء يومٌ اتَّجه فيه إليّ وبندقيتُه على ظهره قائلاً: «يجب أن ترحلي إلى وطنك.» قلت: «هنا وطني.» ودون سبب واضح بدأتُ أشرح له أنّ هذا المنفى الاختياريّ صار الوطنَ الذي لم يكن لي يومًا. لم أكن أستطيع أن أعيش مع نفسي، ناهيك عن الحياة مع أحد. وأما هنا فكنتُ أعيش مع نفسي ومع الآخرين.

قال شيئًا عن الغرب الذي يسيء فهمَ كلّ الأشياء المهمة. سمَّاني «سائحةَ الأزمات.» قال إنَّني فور بدء القتال سأكون أولَ مَنْ يَهْرب.

ـ كنتُ أَهْرب من قبل، ولكنْ هذه هي نهايةُ الهرب.

ضحك مني وانطلق بالسيارة، والترابُ يشكِّل سرابًا خلف العجلات. ومن خلال التراب الملتفّ رأيتُ عربيًا فوق جمل ذي سنام واحد يُسْرع عبر الرمال حاملاً حجرًا ودرعًا. وعلى مسافةٍ ما خَلْفَ العربيّ، كان هناك رجل يركض على صهوة جواد أبيض. سألني الرجلُ إلى أين ذهب الأعرابيّ، فأشرتُ إلى هناك. قال الرجل: «إنّه يَحْمل الزمنَ والحضارةَ معه، ولكنّ الوقت قد فات.» وبينما كان يركض بعيدًا فوق جواده نظرتُ خلفه، فرأيتُ مدَّ البحر المتألّق يتدفَّق نحونا.

بدأ القصف حوالى الثالثة صباحًا ـ وهي الساعة التي تخشى الروحُ فيها الموتَ أكثرَ من أيّ وقت، ويصير الجسدُ أشدَّ ضعفًا. أيقظنا القصفُ من نومنا العميق، وشاهدنا المبنى الحكوميَّ المقابل تلفّه سحابةٌ من الدخان الأسود.

أخذ أفراد العائلة التي كنتُ أقيم معها قليلاً من الملابس وبعضَ أوعية الطهو واتجهوا إلى القبو. وقبض الولدُ الأكبرُ على ديناصورٍ مطاطٍّ محاولاً ألاّ يبكي. وتعلّق الرضيعُ بأمه وهو يَنْظر إلى ملك الديناصورات يختفي ببطء داخل فكّ أخيه.

كانت تلك الليلة تشبه الليالي التالية. لم نَمُتْ، ولكنّنا لم نستطع أن نعيش. كنا ننتظر داخل منطقة المفقودين، المسمَّاةِ بالحرب.

وحين سمعتُ أنّ قوات المشاة دخلتْ إلى المدينة عرفتُ أنّ الوقت قد حان لترك المنزل والذهاب إلى القتال. لم أكد أبدأُ السيرَ عبر الطريق الترابيّ المؤدي إلى الشارع حتى توقفتْ شاحنة، وجَرّني جنديان عراقيان إلى داخلها. ضربني أحدُهما على فمي وأمرني الآخر بأن أخرس، رغم أنّني لم أقل أيَّ شيء. قادا السيارة إلى معسكر خارج المدينة، وأصبحتُ حبيسةً في غرفةٍ للتحقيق مبنيةٍ من الإسمنت وغائصةٍ إلى نصفها في الرمال. كان فمي متورِّمًا، لكنّني سمعتهم جيدًا وهم يقولون إنّهم لا يريدون شهداء أمريكيين على شاشات السي إن إن. لم يكن من المجدي أن أقول إنّني بريطانية ـ ما الفرق؟ ـ أو إنّني جئتُ إلى هنا لأعترض على الحرب. أخذوا الباسبور ومزّقوه. بما أنّني أحبّ العراقَ إلى هذا الحدّ، فإنّني أستطيع الآن أن أكون عراقية. كانت الطائرة الأخيرة إلى بريطانيا قد غادرتْ منذ أيام، وكان يجب أن أغادر: فلقد حذرتني السفارة وطلبتْ منّي الرحيل. ولكنّني، وآخرين مثلي، بقينا. بقيتُ مختبئةً مصممةً على الوقوف في طريق الغزو، رغم وقوفي كسيحةً الآن. على الأقل كنتُ جديرةً بالاغتصاب. نساء في الحرب: دائمًا ينتهي الأمرُ هكذا، أليس كذلك؟ العقاب والحلّ هو أن يغتصبونا. بدأتُ في مقاومة أحدهم، مدركةً أنّ المقاومة بلا جدوى. شعرتُ بجسده فوق جسدي: كنتُ قد جئتُ إلى هنا راغبةً في أن أمنح جسدي، ولكنْ ليس بهذه الطريقة! لماذا تصوَّرتُ أنّني سأموت مَجيدةً في لحظة من لحظات الحقيقة؟ المجدُ يُخترع بعد نهاية الحروب. لا مجدَ هناك في القذارةِ والعرقِ والجلدِ المشوَّه والجروح المفتوحة.

سمعت صوتًا غاضبًا يصيح. نهض الرجالُ وفرّوا هاربين من الخيمة، ممسكين بالأحزمة المفكوكة. كان أحدُ الجنود يساعدني على النهوض. تعرّفتُ عليه: إنّه الرجل الذي كان يطوف كلَّ يوم بالشارع.

– لا يمكنُكِ أن تموتي من أجلنا. ربما تموتين أثناء القتال، ولكنّنا سنموت من أجل أنفسنا.

– وماذا عن النساء والأطفال، مَنْ سيموت من أجلهم؟

لم يجب. كانت هناك أصواتٌ في الخارج. نهض بسرعة واتجه إلى الخارج. فهمتُ القليلَ من الأصوات العالية: كانوا يريدون أن يُحسم أمري سريعًا، إما بإعطائي للرجال أو قتلي. ثم سمعتُ خطواتٍ تبتعد.

بعد مرور وقت طويل من الليل، بعد الصمت الغريب الذي قطعه عويلُ صفّارات الإنذار والقصف المستمرّ، سمعتُ صوتَ باب الكوخ يُفتح. قال:

– اذهبي، اذهبي واختبئي في مكانٍ ما.

– هل ستتركني أذهب؟

– نعم.

– لماذا؟

جلس بجواري على الأرض. أخبرني أنّه دَرَسَ في أميركا. كان يكره صدّامًا، ولكنّه يحب بلدَه ولا يعتقد أنّ الحرب عادلة، لكنّه سيُقْدم على القتل إذا اضطرّ إلى ذلك. لن يستسلم. لن يخون بلده. قال: «يجب ألاّ يصبح العالمُ بأكمله ملْكًا لأميركا.» أخذ بيدي واتجهنا إلى الخارج. كان القصف قد توقّف إلى حين، وضوءُ الكهرباء قد انطفأ والنجومُ تتألّق فوق المدينة. كيف نبدو من هناك، من أعلى؟ العالم الأزرق الجميل، والأنهارُ الكبرى تَعْبره والبحارُ تغطيه، ولا حدودَ أو قيودَ سوى ما صَنَعَ البشر. كانت الأنهارُ تتدفّق دون اكتراث بأيّ بلد تمرّ، والغابات تنمو حيث التربةُ صالحة. نحن جميعًا نتشارك في سماء واحدة وكوكبٍ أزرقَ صغيرٍ. وفي مكان ما من النجوم كان العالم ينفجر.

قال الرجل:

– اسمي «دال.» وددتُ لو عرفتُكِ في زمن أفضل.

وفي الخارج كان رجل يعلّق بندقيةً موجَّهةً إلى كتف دال، وصوتُه يعلو: «أميركية أميركية.» أَخرج مسدسًا من الجراب الخلفيّ، وخطوتُ أنا إلى الأمام رافعةً يديّ. ضحك الرجل الضخم، وبدأ دال في الكلام مسرعًا غاضبًا، وذراعاه أمام صدري. لوّح الرجلُ الضخم ببندقيته نحونا وهو يضحك، ثم أَطلق طلقتيْن على التراب تحت أقدامنا مباشرةً. لم يتحرّك دال، أما أنا فصرختُ وتحركتُ على نحوٍ غريزيّ إلى الخلف. لم يدرِّبني أحد على أن أجبن، ولكنَّني تصرفتُ تلقائيًا.

دوّى انفجارٌ ضخم. فجأةً كنّا ثلاثتنا متكوِّمين على حائط الخندق، والإسمنتُ المتشقِّقُ يخترق ظهري. كان فمي ممتلئًا بالتراب، وكنتُ أختنق. ألقى دال إليّ بقارورة ماء، وجرّني نحو سيارةِ نقل. أَصدر أمرًا سريعًا للجنود، ثم تحركت السيارةُ إلى الأمام، ببطء، مثلَ حيوانٍ ثقيلٍ ثِقَلَ العالم. كان الجزء الخلفيّ من السيارة مظلمًا، وثمانيةُ عراقيين يجلسون على الدكتين المعدنيتين على جانبيْها وبنادقُهم بين أرجلهم. كان الغطاء القماشيّ ممزقًا، والأرضيةُ صدئة. وضع أحدُهم حقيبةً على فتحة في الأرضية ليمنع دخولَ الرمال.

لم يكن أحد يتكلم الإنجليزية. أعطاني أحدُهم شوكولاتة. كانوا أطفالاً بأجساد جميلة ستتألم وتُجرح وتَنْزف. كنتُ قد رأيتُ قبل ذلك نظرةَ دهشةٍ في عينيْ رجلٍ حينما اخترقتْ جسدَه رصاصةٌ. كيف حدث ذلك؟ كانت له زوجةٌ وطفلٌ وليدٌ. وعَدَهما بأن يعود.

ـ هل تذكرين قبل معركة طروادة كيف ودّع هيكتور أندروماك زوجتَه وابنَه الصغير الذي أخافته ريشةُ الخوذة، وبرقةٍ بالغةٍ يخلع خوذته ويقبّل زوجته وطفله ويغادر كبطل ولا يعود أبدًا؟

كان دال يهمس إليّ بذلك، وهو يمسك يدي برقةٍ والسيارةُ تَعْبر الليل. وكنتُ أَسمع طلقات البنادق تقترب؛ كنّا في طريقنا إلى المعركة.

انتهت الرحلة قبل الفجر. كان الجنود نائمين، ورأسُ كلّ منهما على كتف الآخر. شعرتُ بالغثيان من رائحة الديزل، فقفزتُ من السيارة وابتعدتُ قليلاً لأستريح.

كان القمر قد خبا والنجوم شاحبة. جاء دال واستلقى على جانبه بجواري وهو يفْرد بطانيةً علينا كليْنا. قبّلني. كنتُ أريد أن يقبّلني. جسمُه وجلدُه الدافئ كانا الحقيقة. كلُّ الدعاية والعدوان والسياسة والبلاغة تفتقر إلى الحقيقة البسيطة لجسدكَ وجسدي؛ نحن نريد أن نكون أحياء، آمنين، نريد مكانًا لأبنائنا، وكلُّ فردٍ في العالم يريد ذلك. لا شيء أكثرُ بساطةً من ذلك، ولا شيء أكثرُ صعوبةً.

يبدو أنَّني استغرقتُ في النوم. وحينما استيقظت، كان دال يبتسم تحت شمس ساطعة.

قال: أنا أحبك.

قلت: أنتَ لا تعرف عنّي شيئًا.

قال: أنا أعرفكِ، لقد تعرّفتُ عليك.

هززتُ رأسي موافقةً. الحب هو المعرفة. الحب هو التعرُّف: أن تعيد التفكيرَ في كلّ ما نعرفه، وكلّ ما هو نحن، لأنّ شخصًا آخر يقف أمامَنا كالمرآة.

أخذ دال النظّارات المعظِّمة متفحِّصًا الأفقَ الأحمر. أعطاني إيَّاها. كان هناك طابور طويل من الدبَّابات الأميركية يتحرك ببطء نحو موقعنا.

قال: لقد حان الوقت. خائفة؟

هززتُ رأسي بالنفي وأمسكتُ يده. قابلتُه اليومَ فقط، ولن أراه ثانيةً غدًا. لكنّ هذه اللحظة كانت تحوي أعوامًا بداخلها، أزمنةً سابقةً وأخرى تجيء. إذا كان هناك عالم موازٍ لعالمنا، فقد يكون هناك سلام، وسأقابلك هناك.

يحمل الحبُّ كلَّ شيء، يصدِّق كلَّ شيء، يَأْمل في كلّ شيء، يتحمل كلَّ شيء. الحبُّ لا ينتهي أبدًا.

لندن